اللغة العربية لغة حضارة ولغة إعلام

سوماني خالد

جامعة مولود معمري تيزي وزو

الاتصال والإعـلام ووسائلهما

تطورت الحياة بشكل كبير، وحركية تطورها في هذا العصر في معظم الأحيان تفلت من التتبع والرصد، واقع فرضته نزعة الإنسان إلى تجاوز هاجس الزمن، أمام محدودية الحجم الزمني لعمره في هذه الحياة، ولو أمكنه أن ينتشر في آن واحد في أماكن عديدة يلبي حاجاته ورغباته اللامتناهية لفعل، لكن لمّا استحال عليه ذلك سلك سبيل التعويض من خلال إيجاد أسباب ووسائل تحقق له بعضا من ذلك الانتشار، من أبرز هذه الوسائل ما يعرف بوسائل الإعلام والاتصال.

ولا نشك أن الإعلام الاجتماعي قديم قدم البشرية، ونعلم أن الإعلام مبني على الاتصال، والاتصال هذا عملية فطرية في الإنسان يعبر عن نمط تعامل هذا الإنسان مع العالم الخارجي بما فيه من ينتمي إليهم من بني جنسه، "كما يتضح من استقراء التاريخ الإنساني أن الإعلام فن الحضارة بالضرورة يتصل بأسبابها وينتشر بازدهارها"[1]، لأن المجتمعات في مسيرة تطورها تتطور معها وسائل اتصالها لتواكب تطلعات الحياة الجديدة ومعطياتها، لهذا فالاتصال بالمفهوم العام واحد، أما بالنظر إلى كيفيته فإنه يتغير، وفي عصرنا "هو بث رسائل واقعية أو خيالية موحدة على أعداد كبيرة من الناس، يختلفون فيما بينهم من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية وينتشرون في مناطق متفرقة"[2]، ويمكننا تحديد الشروط الدنيا لأي عملية اتصالية تحديدا منهجيا على النحو التالي:

1. وجود علاقة بين طرفين على الأقل.
2. القدرة على الإرسال.
3. القدرة على الاستقبال.
4. توفر وامتلاك رصيد من العلاقات، والإشارات، والرموز.
5. وسيلة الاتصال.
6. الفهم الموحد أو الدلالة الموحدة للرموز في عملية الاتصال الإنساني"[3].

ووسائل الاتصال معلومة، كثيرة ومتنوعة، يميل بعض الباحثين إلى تقسيم أدواتها حسب الحواس، نسبة إلى تلك المستعملة في التلقي كما يلي:

"_ أدوات إعلامية سمعية بصرية وتضم التلفزيون والسينما والمسرح والندوات والمحاضرات

_ أدوات إعلامية سمعية وتضم الإذاعة والأسطوانات وأشرطة التسجيل.

_ أدوات إعلامية بصرية وتضم الصحف والنشرات والمجلات والكتب والملصقات"[4]، وتتقاطع هذه الوسائل في كونها تتوخى الإعلام بكل أبعاده وفقا لاستراتيجياتها، وهو الذي يُحدَد بأنّه: "تزويد الناس بالمعلومات والأخبار الصحيحة والحقائق الثابتة التي تمكنهم من تكوين رأي صائب فيما يُعن لهم من مشكلات، وهو يعبر بذلك عن عقلياتهم واتجاهاتهم وميولهم، مستخدمًا الإقناع عن طريق صحة المعلومات ودقة الأرقام والإحصاءات".[5]

إذن "يمثل العمل الإعلامي كيانا اجتماعيا، وعنصره الأساس هو الإنسان"[6]، ونجاح الإعلام يتوقف عليه لأنه يسعى إلى تحقيق الأهداف وتحويلها من أهداف نظرية إلى أهداف واقعية تعمل بكفاية وفاعلية.

لغة الإعلام لغة حضارة

حتى نكون على بيّنة حين نتحدث عن اللغة وجب أن نعي أن قيمتها لا تتمثل فقط في كونها أداة للتواصل، كما يجب أن نعي أن معظم التهديدات التي تتعرض لبقاء أي لغة هو اقتناع أهلها بأنها لا تعدو أن تكون كذلك، أيْ أداة، وغاية الأمر من كل هذا هو أن ينظر الأفراد والجماعات إليها نظرة براغماتية ضيقة، اعتقادا منهم أن لهم سلطةً عليها، تجيز لهم أن يعاملوها كأي موجود تنتهي غايته لخدمتهم، وهذا الحال كفيل بأن يربك المعنيين به في تحديد هويتهم وكَيل قدرهم، لأنهم بكل بساطة لم يعوا محورية اللغة التي نشأوا عليها، والتي تلقوا نصح وتربية آبائهم وأمهاتهم بها، وبها أيضا تلقوا زبدة تجارب أجدادهم وعصارة حياتهم، من خلال أمثالهم وحكمهم التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، وتغذت هويتهم من الترسبات الثقافية التي ما زالت تحملها اللغة من عصر إلى عصر.

لقد ظلت اللغة زمنا طويلا يُنظر إليها على أن وظيفتها هي التواصل، فهو وظيفتها الوحيدة وقيمتها، ومنها تُستمد ماهيتها، رغم تدخلاتها في شؤون يبدو من بعيد أنها لا تعنيها، ولكن لما ازدهرت العلوم الإنسانية بالخصوص، تنبه الباحثون إلى أن هذه اللغة لها حضور لافت للانتباه في توجيه الظواهر المدروسة وتساهم بفعالية في معادلات التفاعل بين أجزاء المواضيع المدروسة أيضا، فلا علم النفس مثلا تحرر من سلطة حضورها، ولا علم الاجتماع كان بإمكانه تفسير حركية المجتمع بمعزل عن اللغة، ولا الأنثروبولوجيا كان ليوجد أصلا لولا تلك اللغة التي اتخذها جسرا عابرا للزمن تعود به إلى بدايات الشعوب وإلى الأزمان الغابرة، من خلال ملامح وروح ذلك العصر الذي ما انفكت تحملها.. فكشفت اللغة عن نفسها، إنها ليست كيانا مستقلا، يخرج إلى الوجود فقط أثناء لحظة استعمالها في التواصل، "ولكنها على صلة وطيدة بالحياة الفكرية والعاطفية والاجتماعية لهذه الشعوب، أفرادا وجماعات"[7] موجودة بمجرد تحفيز الفكر

حاضرة ملازمة للأحاسيس والعواطف، مديرة للعلاقات مترجمة للسلوكات فقد "نُسب إلى سقراط قوله: حينما يفكر العقل يتحدث إلى نفسه"[8]، إنها منصهرة مع مكونات الجانب النفسي والاجتماعي للأفراد، وبدونها تتعطل المصالح وتختل نظم الحياة، وإذا نحن أخذنا بالأطروحة العامة الآن لدى علماء السيميائيات والأنتولوجيا اللسانية القائلة "إن منظومة لغوية ما تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم وفي كيفية مفصلتهم له، وبالتالي في طريقة تفكيرهم"[9] جاز لنا أن نقول "أن اكتساب اللغة، اكتساب بالضرورة لطرق التفكير"[10]، وهكذا تكون عنصرا فعالا في تنشئة الوعي، المكلف بترجمة الواقع الموضوعي.

"يبقى العالم فيزيائيا كما هو، ولكنه يصبح في الوعي البشري عالما آخر حيث إن لكل ميتافيزيقا خاصة بها، تؤثر من خلالها في أسلوب التفكير دون جوهره الذي يعكس الواقع الحضاري، بينما تستهدف اللغة نقل المعلومات أي الرسائل عن هذا الواقع"[11] فتصطبغ بمنطق هذه اللغة في أساليبها وفي تراكماتها الدلالية وفي أبنيتها، وهي التي يعتمدها الوعي هو بدوره في ترتيب أثاثه وفي تثبيت أنماط ردود أفعاله، إنها تتدخل في تكوين الوعي بدءا، ثم هي أيضا تتدخل في اشتغاله، "لذا يصر العقليون من أصحاب الفلسفة والمنطق على أن الوظيفة الرئيسة للغة عند الكاتب هي نقل الخبرة الإنسانية التي يحملها والتعبير عن الأفكار والمعرفة التي اكتسبها"[12] من واقعه، وكلما حاول أن يتنصل من لغة واقعه أنتج صورة مشوهة عنه، بسبب تفكيكه لوعيه الذي اكتسبه من تعامله مع وسطه باللغة الأم، "فالشعوب التي تتكلم لغات مختلفة تعيش في عوالم مختلفة من الواقع، حيث تؤثر هذه اللغات في مدركاتها الحسية وأنماط تفكيرها باعتبارها الموجه الأساس للحقيقة والواقع الاجتماعي الذي يعيشه المتكلمون بها"[13]، ماذا يعني هذا؟ .. الحقيقة أن اللغة هي الوسيط بين

الوعي والعالم الخارجي، وتعتبر الوسيلة التي تتقمصها الثقافة فتبقى وعن طريقها تنتقل.. وبعد:

كيف يمكن أن نتصور وسائل الإعلام في نقل أي شاردة من الواقع دون أن تستأذن اللغة، بعدما تبين لنا أنه" يصعب بدونها قيام حياة اجتماعية متكاملة ويستحيل قيام حضارة ذات نظم اجتماعية وأنماط ثقافية وقيم أخلاقية ومبادئ ومُثل وحياة مادية ومخترعات، باعتبار أنها أداة التفاهم والإعلام"[14]، وما دامت كذلك، استنفذ الطرح الذي ابتدأنا به مسوغاته، وإذا زاوجنا بين تعريفي الإعلام واللغة فلن يجد الإعلام من وسيلة تحققه تماما، مثل اللغة، ولا اللغة تجد ما يكشف عن حقيقتها مثل الإعلام، ومن مهام هذا الأخير ترصد حركية المجتمع، استيعاب توجهاته،عاداته وتقاليده، جديده، ثابته، متغيره، حسناته عيوبه، وكل شيء متعلق به ممّا صغر أو كبر، فلغته حينها لابد أن تتفاعل مع معطيات واقع المجتمع حتى تمتثل لوظيفتها الحيوية من جهة، ولتلبية حاجة الإعلام إلى أن تكون نِعم الشاهد الذي ينقل الوقائع من جهة ثانية، فالإعلام من دون شك يساهم في تكوين الصور اللغوية الحضارية، وهو السَّباق لتناول إفرازات الحركة الدؤوبة التي تقوم عليها مصالح الأفراد في المجتمع، من بين هذه الإفرازات ما يستدعي تدخلا عاجلا من قبل اللغة لاحتوائها سواء كانت دلالات أو عقليات أو معارف وعلوم وإلا فقدت السيطرة عليها لأن مستويات دنيا لها سوف تزحف على حسابها تدلو بدلوها لاحتوائها على طريقتها الخاصة فتشوش عليها التصورات وتضبب عليها صفاء الرؤية، وتزداد الحاجة إلى تدخلها بتناسب طردي مع تزايد الحركية في المجتمع واتساع نطاقها، وبالتالي زيادة إفرازاتها، شأن عصرنا الحالي الغارق في اللاإستقرار والتحول الدائم في كل المجالات والتخصصات، وليس هناك من وسيلة تحيط بإفرازاتها إحاطة شاملة ووافية، وفي الزمن المناسب، مثل وسائل الإعلام لتخصصها في المستجدات وميل أصل إيجادها لمسايرة التطورات والتحولات، "وهكذا تصبح لغة الإعلام

لغة حضارية تسعى للشرح والتفسير والتكامل الحضاري، باعتبارها من أهم وسائل صوغ الفكر العالمي ونقل المعلومات في المجتمع البشري كلّه وبالتالي صياغة الحضارة"[15].

هل اللغة العربية لغة حضارة؟

يشهد التاريخ أن العرب حين كانوا أهل سيادة وقوة في القرون الإسلامية الأولى، حين كانوا في قلب صناعة الحضارة الإنسانية، وفي أوج العطاء كانت لغتهم محل احترام الأمم والشعوب، بل إنها كانت اللغة التي يُتوخى من استخدامها رواج الفن والعلم في أصقاع الأرض، أعزها الله بالإسلام طبعا لكن هذا لا يفسر بالكل دورها الحضاري في نقل العلوم وتغطية الفجوات المعنوية التي تتخلل اللغات الأخرى، حتى إذا عدنا إلى الإسلام، إلى كتابه المقدس "القرآن الكريم" استنتجنا إضافة أخرى إلى فضل اللغة العربية، كونها حملت معاني كلام الله، ولما كانت كذلك، ومن مبدأ واجب تنزيه الفعل الإلهي عن العشوائية أو الاعتباطية، يتبين لنا أن هذه اللغة هي الأنسب لحمل كلام الله، أي الأنسب لاحتواء المعاني الاعتقادية والميتافيزيقية، فما بالك بمعاني العلوم الدنيوية التي يُعبر عن مضامينها حتى بالرموز واللغات الاصطناعية.

استيفاء قيمة للغة استنادا إلى الدين يوقع في الظاهر في السطحية والتهافت، فيُتهم حكم القيمة هذا بكونه مبنيا على أساس نظرة أيديولوجية عقدية لا يستند إلى معطيات عقلية وعلمية دقيقة متفق عليها، وليكن ذلك كذلك، لكن حين يتعلق الأمر باللغة العربية لا يمكن أن نتحدث عنها، بَعد الإسلام دون ربطها به، فهو الذي مثل بالنسبة لها المنعطف الحاسم الذي يفصلها بين شبه العدم والوجود، كما مورس عليها به كل أنواع التهذيب وأسباب

التأهيل، لتكون في مستوى مواكبة التغيير الكاسح لمختلف الذهنيات والمفاهيم والقيم والمظاهر الأخلاقية السائدة في العصر الجاهلي، وتهيئتها لاستقبال ما يُستجد، وهذه اللغة العربية التي وصلت الهند وأوربا أو الجزائر ليست مجردة عن محمولات وتراكمات استعمالاتها فيما بعد الإسلام.

لقد عامل القدماء لغتهم ونظروا إليها على أنها أفضل اللغات جميعا وأقدرها على التعبير عن العواطف الإنسانية والأغراض ومقتضيات الحياة اليومية، ولا يهمنا الحكم على مذهبهم هذا بقدر الإشارة إلى أن هذا الإحساس سبّب ازدهار العلوم والفنون والآداب في كل الأقطار الإسلامية بهذه اللغة العربية، ولولا هذا الإحساس الذي حرص على رواجها لربما كانت حقا لغة القرآن وكفى، ولا تصلح إلا لما يتصل بالدين من علوم، ولظلت على هامش أحداث الحياة، لكن شيئا من هذا لم يحصل، وإلا كيف نفسر من هم من غير العرب، ألّفوا الكتب والمجلدات في أصناف المعرفة التي لا تكاد تحصى باللغة العربية، وهم في الأصل أصحاب لسان آخر غير العربي، وهم الأغلبية الساحقة من ذوي الإنتاج العلمي في الحضارة الإسلامية.

زيادة على التأليف هذا فقد ترجموا عيون الآداب والفنون من مختلف الثقافات والحضارات، اليونانية والفارسية والهندية، واستطاعت العربية أن تلونها بروحها كأنها كتبت في الأصل بها، "فقد صدرت آلاف الكتب في الآداب والعلوم والفنون بلغة عربية سليمة، ووضعت في كل علم وفن آلاف المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية"[16]، حتى لا نكاد نجد علما من العلوم في عصر النشاط الحضاري للعرب دون أن يكون لهم إسهاماتهم، يذكر أحمد مصطفى في كتابه "مفتاح السعادة ومصباح السيادة" أكثر من ثلاثمائة علم ولا يدخل أكثرها في العلوم الصرفية التطبيقية المعروفة اليوم، وهذه الأنواع من العلوم تدل على سعة مباحث القدماء وقدرة اللغة العربية على التعبير عنها"[17] فكانت مشاركة اللغة العربية قوية حينها في صنع الحضارة فاضطرت الأمم

الأخرى أن تستعين بالمنتجات الحضارية العربية، "وكان اهتمام أوربا بترجمة الكتب العلمية أكثر من اهتمامها بغيرها، ولذلك عنيت بترجمة كتب الفلك والطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات، وأصبحت بين يدي الدارسين وطلبة الجامعات كتب الخوارزمي والرازي وابن سينا وابن الهيثم وجابر بن حيان وابن النفيس والزهراوي"[18]، ولا بأس أن نستشهد باعتراف أحد المستشرقين يتحدث عن اللغة العربية هو "غوستاف لوبون" قائلا: "العربية في الحقيقة من أصلح اللغات لتأدية الأغراض العلمية، فهي غنية بالأصول والمشتقات الناتجة عن هذه الأصول، والمشتقات كثيرة وهي تتفق مع الأصل في اتصالها به من حيث المعنى وإن تحور معناها قليلا بحسب اشتقاقها أو صياغتها"[19]، هذا الاعتراف بحكم لاتينية لغته، أغلب الظن أنه جاء من مقارنته لغة العربية باللغات اللاتينية فوجدها أكثر تحكما في المادة العلمية التي تحملها وأكثر ضبطا لها، ومعلوم أن استعمال اللغات يكون لإبلاغ المقاصد والأغراض، وكلما تعددت الخيارات في التعبير عنها وتعددت كيفيات أدائها، بأقل لفظ وبأتم أداء تحققت الغاية منها، وهذا ما تفتقد إليه أو إلى بعض منه بعض اللغات، "أما اللسان العربي فإنما يدل عليها – المقاصد - بأحوال وكيفيات، في تراكيب الألفاظ وتأليفها، من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب، وقد يُدل عليها بالحروف المستقلة، ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه، فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظا وعبارة من جميع الألسن"[20]، ولو استرسلنا في سرد الأقوال حول فضل اللغة العربية للزم تخصيص بحوث مستقلة في ذلك، فليس يهمنا بالتحديد فضل العربية على غيرها ولكن قيمة هذه اللغة بين قريناتها، وفضلها في ذاتها فيما إذا كانت بإمكانها استيفاء مواصفات اللغة الحضارية، بما تتميز به كإمكانات ذاتية تؤهلها لمواكبة الحضارة الإنسانية، فالادعاء لا يغني المعرفة في شيء لذلك الأولى تفاديه، "وإن خصائصها الذاتية في الاشتقاق والنحت

والإبدال والنقل والمجاز والاقتراض والتعريب، تجعل منها لغة قادرة على استيعاب كل ما هو جديد"[21]، وأيضا مرونة طبيعتها في قابليتها لاحتواء أنماط جديدة من التعبير، وقيام قواعدها على الاتساع رغم ظاهرها الموحِّد وغيرها أكثر.. وأدنى مظاهر الإنصاف للغة العربية "النظر إليها على أنها نتاج حضاري إنساني هي لنا من ناحية كما أنها لغيرنا من ناحية أخرى، ومن ثمة فإن ترقية هذه اللغة وتحديث الوسائل لنشرها هو ضرورة حضارية أيضا ومظهر من مظاهر التعايش الثقافي والتواصل اللغوي الإنساني السامي"[22].

هذا كان حال اللغة العربية حين بسطت الأمة العربية والإسلامية نفوذها على المعمورة، ثم هاهي انكمشت شيئا فشيئا حتى لم يعد لها أي دور حضاري فعال، أو مبادرة للسبق في قيادة قاطرة الحضارة الإنسانية، لأسباب كثيرة فاستحلت النوم فنامت ونامت معها اللغة، والواقع أن لغتنا العربية المعاصرة ضعيفة المشاركة في صنع مفردات الحضارة الحديثة مقارنة بتلك اللغات المسيطرة على التكنولوجيا، وضعف أي لغة يرجع كلية إلى ضعف أهلها، لذلك يجب أن نكون على بصيرة من أمرنا وواقعنا، والتمويه الذي نمارسه على أنفسنا عن قصد أو دونه لا يحل المشكل وربما يعمل على تفاقمه إذا تأخر التشخيص "إن مشكلتنا ليست لغوية بقدر ما هي حضارية، وليست تقنية بمقدار ما هي نفسية"، لقد آن الأوان أن نعود إلى لغتنا كخطوة أولى تمهد لخطوات أخرى للنهوض بحضارتنا نحن، لها استقلاليتها الروحية وبعدها العالمي المادي، وتهميش اللغة العربية من أبنائها تكريس للتبعية والاستسلام في عصر نزاع الحضارات.. فبعدما تبين لنا أمر هذه اللغة العربية فلا مجال للتشكيك فيها، إنها لغة حضارة ولا يتخللها أي عطب أو نقص يستدعيان تهميشها.

اللغة العربية في الجزائر والصحافة

على غرار باقي البلدان العربية، تمتد جذور اللغة العربية في الجزائر إلى قرون خلت، ولم تشتك من أي قصور أو خلل في أداء دورها ووظائفها في مجتمع الأجداد، لكن الاتهامات التي كيلت لها جاءت مصاحبة لمحاولات المستعمر مسخ كل ما هو أصيل وجميل وموحِد، فلجأ كعادته إلى الهدم ودس البديل ولجأ إلى تقويض هذه اللغة من خلال اقتراح بديلين، كلاهما يصبان في خدمة المصالح الاستعمارية، الأول؛ العمل الدءوب على نشر اللغة الفرنسية بفتح مدارس لتعليمها وتعميم التعاملات الإدارية الرسمية وغيرها، والثاني؛ تشجيع انتشار اللهجات والعاميات وإحلالها مكان اللغة الأصل، والحق يُقال؛ لو أن اللغة في غايتها الكلية الوجودية هي التواصل فقط لأمكن أن نجعل هذه العاميات في مستوى واحد مع الفصحى، رغم ما تحمل من معاني التشتت والفرقة، ولكن الواقع غير ذلك، وما كانت لتفوت على المستعمر حقيقة اللغة وتأثيرها في وعي الأفراد وبرمجة نفسياتهم على التكامل والتوحد، وهو الذي خلق علوما واستغرق بحثا فقط للغور في أعماق الشعوب المستعمَرة لاستنباط ما من شأنه أن يبسط له السيطرة عليها، "وأغلب الظن أن العامية هي الحل لما يكابده المستعمر، في محاولاته تهديم وحدة الأمة بتهديم لغتها"[23]، لأنها تخدم تماما سياسة التفريق التي ينتهجها لإضعاف شوكة الشعوب المستعمرة، لأن العامية تتملكها في طبيعتها شراهة للتشتت والتغير والتبدل على الدوام، واللاقاعدة هي قاعدتها التي تكرسها فهي تستعمل من مفهوم اللغة ما يؤدي الغرض، أما الكيفية فآخر شيء تفكر فيه.. استقلت الجزائر ومازلنا إلى اليوم نتجرع مخلفات الحقبة الاستعمارية الكثيرة، ويعتبر ما يتعلق باللغة العربية أحدها.

هل يعني أنه لولا الاستعمار لبقيت النواحي والضواحي في الجزائر تتحدث لغة مشتركة واحدة ويستعملونها في كل أمورهم لا يحيدون عنها، هي اللغة العربية الفصحى؟ طبعا لا، "إن وجود العامية بجانب الفصحى على ما بينهما من

اختلاف ظاهرة طبيعية في كل اللغات"[24]، يلجأ إليها الناس تحررا من قيد اللغة الأصل وهي "لا تخضع لقوانين تضبطها وقواعد لغوية تحكم عباراتها لأنها تلقائية متغيرة بتغير الأجيال والظروف المحيطة بها"[25]، ولا تحمل العاميات واللهجات معنى التشتت والفرقة دائما، فقد تحمل معنى الاتساع والانتشار، "ولنا إن أحسنا قراءة القرآن وتدبرنا لغته أن ندرك كيف أنه جاء نموذجا للغة المتحضرة التي تلتقي فيها الثقافات وتتجاور اللهجات تماما كما كانت تتجاور القبائل وتتعايش الأمم في مكة المكرمة"[26]، وهو خير مثال يساق للتخفيف من حدة الحساسية المفرطة بين اللغة الموحدة المشتركة والمستويات الأخرى التي تنحدر منها. واللغة كائن حيوي، والحيوية تعاكس السكون والثبات، فهي لا تلبث أن تتطور وتتغير، وهو ناموس من نواميس اللغة الطبيعية، تموت ألفاظ وتُستجد أخرى، تتغير المعاني والمفاهيم، تحور القواعد.. إلى غير ذلك من مظاهر تطورها، وهي مظاهر لا تهدف إلى نسف القواعد التي تقوم عليها اللغة، أو إحداث قطيعة بين حاضرها وماضيها، "ولا يعني التطوير والتحديث التخلص من التراث أو القضاء على ملامح اللغة وخصائصها، وإنما يعني أن نوفق بين سمات هذه اللغة واستعمالاتها المعاصرة والمستقبلية وفق قواعد ومناهج معروفة ومتفق عليها ويمكن القياس عليها واستعمالها من أي شخص آخر"[27].

وكما هو معروف في تطور الأشياء أنه تتجاذبه نزعتان، نزعة الثبات ونزعة التحول، ولكل نزعة مسوغاتها، وعادة فإن التحول يصيب الفروع والثبات متعلق بالأصول، واللغة لا تخرج حركية تطورها عن هذا التجاذب، فالعمل مثلا على "تيسير الفصحى قضية تربوية"[28]، عملية تعنى بتبسيط تناول قواعدها والاعتراف بطبيعة تواجد العامية إلى جانب الفصحى لا يحمل أكثر من معنى حرية العامة في استعمال المستوى الذي يحلو لهم في تعاملاتهم اليومية، وهم معذورون بحكم مستوى وعيهم وبساطتهم، أما إحلالها أو التوجه نحو إحلالها

مكان الفصحى في كل شأن حتى في وسائل الإعلام، فهو محاولة في الوقت الراهن لتجسيد ما عجز عنه المستعمر.

يقولون أن الفصحى صعبة ومعقدة، "واللغة لا توصف بأنها سهلة أو صعبة إلا إذا كان من يتعلمها من غير أبنائها"[29]، وإلا ما كنا لنسمع باللغة الصينية لقد تبنت وسائل الإعلام في بعض ممارساتها منطق العامة القائم على المباشرة والتبسيط المخل، فأنتجت بذلك لغة تتراوح بين الفصحى والعامية، أهم مرتكزاتها:

- تبسيط اللغة وتجاوز اللغة القاموسية المعقدة تجنبا لتعجيز القارئ والمتلقي والتخلي عن النخبوية.
- استخدام كل لفظة تؤدي معنى لا يهم أصلها ولو كانت أجنبية لأن منطق العولمة يفرض ذلك.
- ضرورة مجاراة اللغات الإعلامية السريعة التي تسقط من حساباتها سلامة البناء اللغوي خاصة في المصطلح والاختزال"[30].

فهل هذا حقا هو المستوى الأصلح للصحافة الجزائرية باللغة العربية ؟

إن وسائل الإعلام معنية بما اتضح سابقا في باب لغة الحضارة دون استثناء، وقد تبين لنا أنّ لغة الإعلام لغة حضارة، واللغة العربية كانت ولم تزل لغة حضارة، وعليه "فإن الغلط أو الفهم في اللغة يكلفان الجزاء، فالغلط يكلف بناء جيل يجيد الخطأ ويتعمده، والفهم يعني البيان والإجادة وحب اللغة"[31].

والحال أكثر إلحاحا مع الصحافة المكتوبة، لعامل مهم هو ارتباط تحققها باللغة المكتوبة، واستهدافها للقراء الذين يمتلكون الحد الأدنى من الرصيد اللغوي الذي يؤهلهم لممارسة فعل القراءة، من خلال آليتين يختزلهما هذا الفعل هما: "فك الشفرة، فالفهم أو الاستيعاب"[32]، هاتان الآليتان تندمج لتحققهما عمليات ذهنية وعاطفية معقدة، مقارنة بتلك التي تحدث حين تلقي اللغة الشفوية، لأن تلقي هذه الأخيرة يعتمد في استيعاب دلالات القول والمقاصد

على ملامح مصاحبة كالتنغيم، والنبرة، وسرعة الأداء وذبذبات الصوت بالإضافة إلى ملامح الوجه والحركات، والإيماءات بالنسبة للاتصال المباشر فأبرز تحد يعترض المكتوب هو كيفية التعبير عن تلك المقاصد الناتجة عن تلك الملامح المصاحبة وربما لا يُعرف مغزاه بتاتا إذا أُغفلت.. نعم، هناك بعض العلامات لسدّ مثل هذه الفراغات إلا أنها تبقى لا تترجم بالفعل المعنى كما هو في الواقع، ومن هذا الهامش المتمرد على سيطرة الكاتب تنشأ المشكلات وسوء التفاهم بين الصحفي وقرائه، فالصحفي لا يستطيع أن يكتب ما لا يقدر على التفكير فيه، كذا لا يستطيع أن يفكر بعيدا عما تؤهله به قدراته اللغوية في جانبها المكتوب، وربما ينزاح في بعض الأحيان عن المضمون الحقيقي مضطرا لضيق في أفق كتابته، وليس هناك من حل أمثل لمعضلته سوى الاعتماد على اللغة الفصحى المشتركة التي تعبر عن أعماق أحوال مجتمعه، والتي لها جذور في الممارسة الكتابية، ألِف أفراد المجتمع أنماطَ تغطيتها للملامح المصاحبة وأسلوبَها وإحاطتَها الدقيقة بالمعاني والدلالات، "وإذا لم توجد لغة مشتركة بين الكاتب وجمهوره، فإن هذا الكاتب يفقد قدرته في توجيه وقيادة جمهوره من القراء، وينجم عن ذلك سوء الفهم والتفاهم، وبالتالي تنعدم أو تضعف عملية التأثير التي تعتبر الوظيفة الرئيسة للمقال الصحفي بشكل عام"[33]، ومن مزاياها أنها تطمس تلك الفوارق التي تقوم عليها اللهجات والعاميات، وتصيب أكبر عدد من القراء، ولا تتغير بسرعة لخاصية في صلاحيات قواعدها ومصطلحاتها.

أغلب الظن أن الصحفي يدرك تمام الإدراك التفاوت الواضح بين خليط مستويات اللغة التي يستعملها، بين المستوى الأدبي والعلمي والوظيفي، كما يدرك أن أشملها هي الفصحى، وهذا النمط من الاستعمال يعكس البعد البراغماتي في تعامل الصحفي مع اللغة العربية، وسنكون واقعيين إلى حدٍ ما إذا قلنا إن"المهمة الرئيسة للصحيفة هي السعي إلى تحقيق الربح وخدمة الجمهور في نفس الوقت"[34]، وإن شعارها الدائم هو الغاية تبرر الوسيلة، "أيا تكن غاية

الكاتب ـ أكانت التأثير أو الإقناع والإعلام أو التعزية أو التحرير بل وحتى إن كانت إحداث اليأس ـ فإن هدفه ومحط رحال حواره هو القارئ والجمهور"[35] لهذا فإن الصحفي لن يتوانى عن تسخير اللغة، لإرضاء أكبر شريحة من القراء لأن مقياس النجاح بمثل هذه السلوكات والقناعات هو بحجم المبيعات، ولا نسقط اللوم كله على الصحفي، لأن عمله لا يخرج عن فلسفة المؤسسة التي يعمل لها، "أي أن سلوك القائم بالاتصال يخضع في المقام الأول للقيود والضوابط المرتبطة بالمؤسسة التي يعمل فيها، أي يخضع للبناء الداخلي للوسيلة الإعلامية التي يعمل في إطارها"[36]، وهو منطق تجاري بحت ينطق "بأن القارئ مستهلك وهو ككل المستهلكين "[37]، هذا المنطق هو الذي يؤخر ما حقه التقديم ويقدم ما حقه التأخير، كيف لا وقد عُرف المثقف على مر العصور بأنه المُتَّبع، وهو الذي يبادر لصناعة الذهنيات وأنماط الحياة، أما اليوم فكل شيء ينطلق من العامة ولأجل العامة، والكل يهرول لإرضائهم ليس حبا فيهم لكن طمعا في سخائهم.

ولوسائل الإعلام أن تراجع نفسها؛ هل حقا لها مشروع حضاري؟ فإن كان لها، فلن تجد للغة العربية الفصحى بديلا لها وسيلةً لنقل مضامينها، وإن كان لا، فلتلك العشوائية تماما وُجدت المستويات الدنيا للغة، ولا نشك في نوايا المؤسسات الإعلامية فحسبنا حسن الظن فيها كلها.

الهوامش

1 - عبد العزيز شرف، وسائل الإعلام ومشكلة الثقافة، ط1، بيروت، دار الجيل، 1993، ص65

2 - محمد منير حجاب، وسائل الاتصال "نشأتها وتطورها"، ط1، القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع، 2008، ص9

3 - محمد الجوهري وآخرون، علم الاجتماع الإعلامي، ط1، القاهرة، دار القاهرة، 2001 ص29

4 - غريب سيد أحمد وآخرون، علم اجتماع الاتصال والإعـــلام، الإســكندرية، دار المعرفـــة الجامعية، 2001 ، ص129
5 - عبد العزيز شرف، المصدر نفسه، ص63
6 - نبيهة صالح السامرائي، علم النفس الإعلامي "مفاهيم، نظريات، تطبيقات"، ط1ن عمان، دار المناهج للنشر والتوزيع، 2007، ص31
7 - عبد الكريم خليفة، اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، ط1، عمـــان، دار الفرقـــان للنشر، 1992، ص11
8 - صابر حارص، فن كتابة المقال العمودي في الصحافة العربية، ط1، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، 2006، ص115
9 - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي "دراسة نقدية تحليلية لنظم المعرفـــة فـــي الثقافـــة العربية"، ط5، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1996، ص15
10 - عبد الكريم خليفة، ص13
11 - عبد العزيز شرف، ص65
12 - صابر حارص، ص115
13 - عبد العزيز شرف، ص66-67
14 - م.ن، ص. ن
15 - م. ن، ص65
16 - أحمد مطلوب: "دور اللغة في الإشعاع الحضاري" نصوص أعمال الندوة حول مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية(6-8 نوفمبر2000)، منشورات المجلـــس الأعلـــى للغـــة العربيـــة الجزائر، 2001، ص51
17 - م. ن، ص48
18 - م. ن، ص56
19 - م. ن، ص59
20 - ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: درويش جويدي، بيروت، المكتبة العصرية، 2001، ص555
21 - عبد الكريم خليفة، ص33
22 - أحمد حساني: "المرتكزات اللسانية لتعليمية اللغة العربية في وسط تعدد الثقافات واللغات" نصوص أعمال الندوة حول مكانة اللغة العربية بـــين اللغـــات العالميـــة(6-8 نـــوفمبر2000) منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2001، ص74

23 - يوسف الصيداوي: "اللغة العربية في تحديات العصرنة"، نصوص أعمال الندوة حول مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية(6-8 نوفمبر2000)، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية الجزائر، 2001، ص336

24 - عبد الكريم خليفة، ص38

25 - أحمد عزوز: التواصل بالعامية بين الأثر في التفكير والعجز عن التعبير، أعمال الندوة حول: "الفصحى وعاميتها بين التقريب والتهذيب"، ط1، منشورات المجلس، الجزائر، 2008 ص288.

26 - سعيد السريحي: "شجاعة العربية وأوهام النقاء"، نصوص أعمال الندوة حول مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية(6-8 نوفمبر2000)، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية الجزائر، 2001، ص106.

27 - إبراهيم بدران: "اللغة العربية وتحديات القرن الواحد والعشرين"، نصوص أعمال الندوة حول مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية(6-8 نوفمبر2000)، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2001، ص350 .

28 - محمد عبد عبد الله عطوات، اللغة الفصحى وعاميتها، ط1، بيروت، دار النهضة العربية 2003، ص129

29 - يوسف الصيداوي، ص333

30 - عزالدين ميهوبي: "القاموس الإعلامي: صحافتنا وتعويم اللغة"، دور وسائل الإعلام في نشر اللغة العربية وترقيتها، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، 2004، ص31

31 - صالح بلعيد: "دفاعا عن لغة الإعلام"، دور وسائل الإعلام في نشر اللغة العربية وترقيتها الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، 2004، ص116

32 - دانيال هلالاهان وآخرون، صعوبات التعلم "مفهومها، طبيعتها"، تر. عادل عبد الله محمد ط1، مصر، دار الفكر،2007، ص519

33 - صابر حارص، ص117

34 - محمد منير حجاب، ص59

35 - روبير اسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب، ترجمة: آمال أنطوان عرموني، ط1، بيروت عويدات للنشر والطباعة، 1999، ص16

36 - محمد الجوهري، ص438

37 - روبير اسكاربيت، ص119